ناصر صالح

ما لاذ بالحلم

قصص



ناصر صالح

ما لاذ بالحلم

قصص



ناصر صالح

ما لاذ بالحلم

قصص



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-383-7

الطبعة الأولى 2013

الفهرس

للمهزومين تاريخهم

عندما بلغني أن ياسر علي بقر بطن عمه بسكين كبيرة ذهلت، شعرت برعد يدوّي في روحي، ويزلزل كياني. كنت قد خرجت من الحصة الأخيرة إلى غرفة المعلمين في المدرسة، وهناك وجدت وليدًا، أستاذ اللغة العربية، ينتظرني قلقًا، مهمومًا. كان وليد يعرف علاقتي بياسر علي، ولطالما تحدثنا عنه كثيرًا في سنوات الصبا، وأيام الدراسة في الجامعة، انتحى بي جانبًا وهمس لي:

ـ هل سمعت بما جرى؟

نظرت إليه مستغربًا:

ـ ماذا جرى؟

ـ ياسر علي هجم على عمه بسكين كبيرة وطعنه عدة طعنات.

كنت أنظر إليه مصدومًا، غير مستوعب ما يقول، لاحظ ذلك، فأضاف:

ـ العم في العناية المركزة، ويقال أن الشرطة ألقت القبض على ياسر.

شعرت بأن الدنيا تدور.. حلقي جاف، ريح باردة

تعوي في أذنيَّ، وعرق غزير ينز من جسمي، فراح وليد يحكي لي تفاصيل كثيرة عن الخبر الذي أصبح حديث المدينة.

عندما وصلت إلى المنزل ظهرًا ألقيت بجسدي المنهك في السرير، كنت مضعضعًا، خائر القوى، أنظر إلى السقف فأشعر بأن الدنيا تدور وتدور. تخيلت الجنود يقودون ياسر علي إلى ساحة الإعدام، فلم أستطع أن أقاوم الدموع في عيني.. أخذت أستعيد لقائي الأول والأخير بياسر علي في مقهى الجداول المقابل لشاطئ البحر، كنت حينئذ في السنة الأخيرة بالجامعة، وكان سبب لقائي إياه هو البحث الذي كنت أقوم به عن تاريخ الثورة المجهضة التي حدثت في بلادنا قبل ما يزيد على 30 عامًا. أتذكر حين أخبرت رئيس قسم التاريخ بالجامعة برغبتي في أن يكون بحثي لمشروع التخرج عن تاريخ «الثورة» كيف نظر إليّ مرعوبًا، بلع ريقه، وقال: «اختر موضوعًا آخر. أنصحك بالتاريخ القديم، لا تتدخل في السياسة. اختر موضوعًا يساعدك على الحصول على وظيفة».

كنت أعلم أنني لو كتبت مثل هذا البحث فلن تقبله الجامعة، ولن يتاح لي نشره أبدًا؛ وربما سيؤثر ذلك في فرص حصولي على وظيفة بعد التخرج، لكنني كنت أشعر بـ«المسؤولية التاريخية»، كنت أتذكر كلمات أستاذي ظافر سليمان الذي حبّبني بمادة التاريخ في المرحلة الثانوية، وربما هو من غرس في نفسي بذور «الوعي المضاد للتاريخ الرسمي»، كان يقول لنا: «التاريخ الذي تقرأونه في

الكتب، وتسمعونه في وسائل الإعلام هو تاريخ المنتصرين، أما المهزومون فلم يكتب تاريخهم أحد، لو أتيح لهم أن يكتبوا حكايتهم لتغيرت وجهة نظرنا تجاه الكثير من الحقائق التي نعتقد بها.. إذا أردتم التاريخ الحقيقي فابحثوا عما يكنه المهزومون والمسحوقون في صدورهم..»

كان أستاذنا ظافر سليمان مختلفًا عن كل أساتذة المدرسة، كان يمشي بهدوء وتأمل، خطواته طويلة وواثقة، ونظراته عميقة ومتفحصة، وعلى شفتيه غالبًا ابتسامة ساخرة، وكثيرًا ما كان يلعب بمسبحة سوداء في يديه كأنه يقلّب أفكارًا عميقة وخطيرة!. كنت أنتظر حصته بفارغ الصبر، لأنه الوحيد الذي لا يطالبنا بحفظ التواريخ والأحداث، كان يعرف كيف يثير نفوسنا بكلماته الغامضة الموحية، ويشعل عقولنا بالأسئلة، ويترك لنا مساحات للتفكير والتحليل واستنتاج الدلائل، وبعد ذلك يطالبنا أن ننظر في الكتاب المدرسي. كنا كثيرًا ما نوجه إليه أسئلة مباشرة، عن الثورة، ونظام الحكم، والفساد..إلخ، وكثيرًا ما كنا نرافقه بعد الحصة إلى غرفة المعلمين مطالبين بشرح أكثر، مستمتعين بالحوار الشائق معه لكنه كان بارعًا في الإيحاء بالإجابة دون أن يقول لنا رأيًا محددًا يمكن أن يُحاسب عليه!، لكن الأعين كانت دائمًا متيقظة، وهنالك دائمًا من يحاسب حتى على النيات، لذلك لم يدم وجود الأستاذ ظافر في المدرسة سوى عام دراسي واحد، وبعده تم إنهاء عقده ليغادر البلد نهائيًا، لكن ما غرسه في نفوسنا ظل حيًا معنا، وربما لم أدرس أنا تخصص التاريخ

بالجامعة إلا لأكون مثل أستاذي ظافر سليمان، أما ما تعلمته من الجامعة فلا يعدو أن يكون بعض المهارات الأساسية في البحث العلمي، والمعلومات والمعارف، لأن معظم الأساتذة شخصياتهم هزيلة، خصوصًا وأننا كنا نعلم أنهم اختيروا بعناية من قبل الأجهزة الأمنية حتى لا يكونوا من ذوي العقول التي قد تفسد عقول الطلبة!

إصراري على أن أكتب بحثًا عن الثورة هو سبب معرفتي بياسر علي، لم تكن هنالك مصادر مكتوبة، سوى معلومات شحيحة وردت في بعض الكتب المهربة من الخارج. بعض المشاركين في الثورة أصبحوا مسؤولين كبارًا في الحكومة، وبعضهم الآخر تجارًا يملكون الملايين، كنت أعلم أن هؤلاء لن يقولوا شيئًا، أما الذين انغرس دولاب حظهم في الطين ففضلوا الصمت والنسيان، لأن ما ذاقوه من أهوال وعذابات في السجن جعلهم يتحاشون أي حديث عن الثورة، متلفتين يمنةً ويسرةً كلما جاء ذكر أي موضوع يتعلق بالسياسة.

التقيت يومئذ عددًا من الثوريين السابقين، أحدهم كان منفيًا أكثر من عشرين عامًا خارج الوطن، وعاد بعد أن صدر عفو عنه مع آخرين، وآخر يصفونه بأنه كان أحد منظّري الثورة، لكنني لم أسمع منهم جميعًا إلا كلامًا متحفظًا لا يختلف كثيرًا عن الخطاب الرسمي، لم أجد وجهة النظر الأخرى، تاريخ المهزومين كما كان يقول أستاذي ظافر سليمان، وفي تلك الأثناء خطرت في ذهني لأول مرة فكرة الذهاب للقاء ياسر علي.

كنت أتذكر جلسته المسائية في مقهى الجداول المطل على البحر، رأيته غير مرة وأنا أعود مع رفاقي من مباريات كرة القدم على شاطئ البحر، كنا حينئذ في المرحلة الثانوية، وكانت كرة القدم محور اهتمامنا. كنا نراه وقت الأصيل أثناء عودتنا من شاطئ البحر بعد لعبنا بالكرة، جالسًا في طرف المقهى وحيدًا، وجهه إلى البحر، وظهره إلى المدينة. كان يبدو ساهمًا، حالمًا، غائبًا وبعيدًا عن كل ما حوله، عيناه سابحتان في السماء، وشعاع الغروب الأرجواني الناحل يضفي هالة من الحزن والهيبة الغامضة حوله، كان أحيانًا ينتبه إلى نظراتنا الفضولية.. ينظر إلينا وكأنه لا يرانا، ثم يغيب في عالمه الخاص!

كان ياسر علي مثار اهتمامنا وفضولنا، وربما ما أضفى عليه هالة من الغموض والجاذبية ما كان يردده الناس عن ذكائه وثقافته الواسعة، وأنه كان أحد المنتمين إلى الثورة، ويحكون أنه كان من أذكى الطلبة الذين عرفتهم مدارسنا. كان عبقريًا في العلوم والرياضيات، وبعض المعلمين الذين عرفوه في المدرسة يقولون إنه كثيرًا ما كان يحل مسائل رياضية معقدة بطرائق جديدة لم يرد ذكرها في الكتاب المدرسي، وأحيانًا حتى المعلمون لا يعرفونها، لكنهم كانوا يدهشون من صحة النتائج ودقتها. كان جميع المعلمين في المدرسة يتوقعون له مستقبلًا علميًا باهرًا، خصوصًا وأنه كان قارئًا نهمًا، ويقال أنه كان يقرأ كتبًا علمية وفلسفية أكبر من سنه بكثير. كان آنئذ يستعد للذهاب في بعثة دراسية إلى الخارج عندما جرت الاعتقالات،

وحكم عليه بالسجن 15 عامًا بسبب انتمائه إلى إحدى خلايا شبيبة الثورة، والبعض يشير إلى أن انتماء ياسر علي إلى أفكار الثورة كان بتأثير أحد معلميه الذي كان مقربًا من قيادة الثورة.

بعد خروجه من السجن رفض ياسر علي العمل في الحكومة، وفضل أن يعيش في المزرعة التي ورثها من والده، كانت المزرعة في الطرف الغربي القصي من المدينة، لم تكن المزرعة وما حولها، عند خروجه من السجن، سوى أراض بور بها آثار لمزارع قديمة هجرها أهلها إلى المدينة، ومازالت الإشاعات تتردد بأن الحكومة، وبتأثير عدد من التجار، تخطط لإنشاء فنادق سياحية بدل تلك الأراضي البور التي تشوه المنظر العام ـ كما يقولون ـ لكن ياسر علي أعاد إلى الأرض البور اخضرارها، أخذت أشجار النخيل، والرمان، والمانجو، والبيذام، ترفع رؤوسها إلى الأعالي يومًا بعد يوم، وأصبح أهالي المدينة يشاهدون من بعيد بقعة خضراء وارفة تثير في نفوسهم لواعج الحنين إلى الزمن القديم!. في تلك الأرض الخضراء اعتزل ياسر علي الناس، وظل وحيدًا مع أشجاره، ولا يأتي المدينة إلا عصرًا، يمر بالسوق لقضاء حاجاته، ويجلس قبيل المغرب وحيدًا حتى المساء في مقهى الجداول المطل على البحر.

عندما ذهبت إليه في المقهى كنت هيابًا، مرتبكًا، لا أعرف كيف سأبدأ معه الحديث، اقتربت منه، رجل نحيل، منحته الشمس سمرة خفيفة، وجهه يميل إلى الطول، يشبه

إلى حد ما حصانًا عنيدًا، عيناه السوداوان الواسعتان تشيان بحزن وغموض وعمق في التفكير، ورغم أنه تعدى الخمسين من عمره إلا أن جسده يعبر عن فتوة وصلابة، خصوصًا عروق يديه النافرة، وكفه الخشنة.. كنت أحمل معي دفترًا صغيرًا في يدي، وكتاب «مذكرات دراجة نارية» لتشي غيفارا. تعمدت أن أجعل عنوان الكتاب ظاهرًا في مواجهته كي يقرأ العنوان في الغلاف مع صورة غيفارا بعينيه الحالمتين.. سلمت عليه وقلت:

- هل تأذن لي بالجلوس؟

نظر إلي نظرات متفحصة، ثم قال:

- تفضل يا ابني

- أنا طالب في الجامعة، وأشتغل الآن على كتابة بحث علمي عن «الثورة».

نظر عميقًا في عيني، وكأنه يريد أن يعرف أي نوع من الرجال أكون، ارتبكت قليلًا. حوَّل نظره إلى الكتاب وقال:

- هذا كتاب جميل، هل قرأته؟

- قرأته بحب كبير، شخصية مذهلة وأفكار تثير الإعجاب.

كان ينظر عميقًا إلى عينيّ، وكنت أحاول أن أعبر عن انطباعاتي عن الكتاب بأقصى ما أستطيع من صدق ووضوح لأبعث الاطمئنان في نفسه حتى لا يظن أنني أحد المخبرين، لكنه قاطعني فجأة وبنبرة واثقة قال:

ـ أعرف أنك لست أحد المخبرين، لا تقلق، وحتى لو كنت كذلك فأنا لا أكترث، آرائي كنت أعبر عنها بوضوح حتى وأنا في السجن، لماذا تريد أن تكتب عن تاريخ الثورة؟

ـ لأن التاريخ الذي نعرفه الآن هو تاريخ السلطة، تاريخ المنتصرين لا المهزومين، لن نستطيع أن نفهم حاضرنا أو مستقبلنا إن لم نفهم هذا الجزء الهام من تاريخنا.

ـ وماذا ستصنع بالتاريخ، هل تريد أن تقوم بثورة أخرى.؟

وأطلق قهقهة عالية أثارت انتباه الجالسين في المقهى، رأيت عينيه العميقتين تشعان بطفولة مذهلة، وتلألأت دمعتان في طرفي عينيه.. عاد إلى الصمت فجأة ونظر بعيدًا تجاه البحر، قلت:

ـ هل ينبغي لمن يدرس التاريخ أن يقوم بثورة، نحن كجيل نريد أن نفهم الماضي، «الثورة» جزء من تاريخنا، الحكومة عتَّمت على هذا التاريخ، وهي بذلك بترت جزءًا من ذاكرتنا الوطنية.

ـ وأين ستنشر هذا البحث، في الجرائد الحكومية؟!

ابتسم بسخرية وأضاف:

ـ الحكومة أفسدت كل شيء، الفساد امتد إلى النفوس، الخراب عمَّ كل شيء، لن تغير الكتابة شيئًا.

ـ لكن الكلمة الصادقة..

ـ مقابل الكلمة الصادقة الواحدة تلقي الحكومة علينا كل يوم بأطنان من الكلمات والهراء والأكاذيب، الصحف والإذاعة والتلفزيون.. لقد زرعوا الخوف في النفوس. النفوس الخائفة المرعوبة لا يمكن أن تغيرها كلمة صغيرة صادقة.

كانت شعلة غضب تتوهج في عينيه، وزبد خفيف يسيل من طرفي شفتيه، كان يهدر كأنه جمل غاضب جن جنونه، كنت أحاول أن أقنعه بقوة الكلمة، بالحقيقة، بكل ما آمن به قلبي في المرحلة الثانوية والجامعية، لكنه كان يردد بإصرار:

ـ ينبغي لمن أراد التغيير أن يقوم بفعل ما.

ـ في البدء كانت الكلمة.

ـ في البدء كان الفعل. الفعل وحده الذي يغير، المجتمع الآن مشلول، كسيح بسبب الخوف، ينبغي القيام بفعل جريء يهز أركان النظام السياسي، حتى يعرف الناس بأن هذا العملاق أرجله من طين!

نظر إليّ طويلًا، وكأنه يتردد في البوح لي بسر خطير، اقترب مني ثم قال وكأنه يهمس:

ـ أتعرف لو امتلكت قنابل وصواريخ.. آه لو أمتلك قنبلة واحدة.. ينبغي أن يباد كل شيء، نعم كل شيء..

صمت، ثم أضاف بلذة: عندئذ قد يولد شيء جديد!

امتدت تلك الجلسة لساعات، شحب خيط الغروب الأرجواني الضئيل حتى انطفأت شمعته وحل الظلام. كانت أمواج البحر ترجِّع صدى ذكريات بعيدة، حكى لي ياسر يومئذ عن طفولته، عن علاقته بالثورة، عن أفكار الحرية والعدالة والمساواة التي آمن بها ولا يزال، حكى عن تجربة الاعتقال، عن الأهوال التي رآها في السجن. أتذكر أنه، غير مرة، حين أتى على ذكر عمه كان ينعته بـ«الكلب، السافل، والحقير» كان يقول: «أعرف أن عمي الكلب ضابط أمني كبير، كان هو سبب اعتقال الكثير من الثوار، لذلك كرمته الحكومة بمنحه امتيازات مالية وتجارية، لم يصبح مليونيرًا لعبقريته بل لنذالته..».

في تلك الظهيرة النحاسية التي بلغني فيها أن ياسر علي بقر بطن عمه بسكين كبيرة استعدت ذكريات لقائي الأول والأخير به، لم أره منذ أن تخرجت في الجامعة، شغلتني ظروف الحياة، أو ربما أنا تجنبت التقاءه لسبب غامض لا أفهمه. هل تراني كنت أتحاشى لقاءه حتى لا يشي بي المخبرون في المدينة؟ هل تراني كنت أخشى أن أتهم بأن لدي أفكارًا ثورية؟ هذه الأسئلة التي كنت أحاول أن أكبتها في نفسي طويلًا، تستيقظ الآن وتتحول إلى سكاكين حادة تقطِّع أشياء عميقة في نفسي.

لم أطق البقاء وحيدًا في منزلي، خرجت عصرًا إلى السوق الشعبية، أخذت أمشي وأنا أفكر في ياسر علي و«الثورة» و«جريمة القتل» التي أصبحت حديث المدينة، كان الناس يرددون قصصًا كثيرة، وجدتني لاشعوريًا أمام

مقهى الجداول المطل على البحر، جلست إلى الطاولة نفسها التي كان يجلس إليها ياسر علي. طلبت شايًا.. رواد المقهى يقولون أنه في يوم الجريمة بدا ياسر علي عصبيًا، قلقًا، متوترًا على غير العادة، وأنه جلس وشرب الشاي بسرعة، وذهب إلى شاطئ البحر يمشي بخطوات سريعة على غير عادته، وقال بعضهم أنه كان يمشي تائهًا على شاطئ البحر، وأنه كثيرًا ما كان يرفع يديه ويتكلم بصوت عال كأنه يكلم أحدًا ما في الخفاء!، أو كأنه يترافع في محكمة خفية لا يراها غيره، وأنه بعد الغروب عاد إلى المقهى وشرب شايًا بسرعة، وكان يزمُّ شفتيه كمن عزم على أمر خطير!.

يقال أنه في ذلك المساء ذهب مباشرة من المقهى إلى بيت عمه، كانت الساعة حوالى التاسعة، كان يعرف أن عمه يعود مبكرًا إلى منزله، قرع جرس الباب، جاءه أحد الخدم، طلب منه أن ينادي عمه، بعد دقائق جاء العم الذي تجاوز السبعين إلا أنه ما زال محتفظًا بأناقته. بدت عليه الدهشة والاستغراب والقلق عندما رأى ابن أخيه ياسرًا واقفًا أمام الباب، اقترب العم بحذر، أخذ يردد كلمات الترحيب لكن ياسرًا كان ينظر إليه صامتًا ويغضب يشتد كلما اقترب العم، أخرج ياسر من وراء ظهره سكينًا كبيرةً لمعت في الظلام وأذهلت العم، انقض ياسر على عمه، أطبق قبضة يده اليسرى على رقبته، وبيمناه طعنه بالسكين التي نفذت عميقًا في بطن العم، كان ياسر علي يصرخ بصوت عال: «يا كلب، يا سافل، يا حرامي، يا نذل..»

بينما جحظت عينا العم من الألم والفزع، كان وجهه يتلوى إثر الطعنات المتتالية، ويطلق حشرجات متألمة.. رمى جسد العم في الأرض، وخرج يمشي وفي يمينه السكين الملطخة بالدم.. أقبل الخدم أولًا ثم الزوجة والأبناء، ويروي البعض أن الابن الأكبر ركض باتجاه ياسر علي كي ينتقم لأبيه، وأن ياسر علي عندما شعر باقترابه منه توقف والتفت إليه، إلا أن الابن فزع من نظرات ياسر علي والسكين الحمراء في يمينه، وأنه ولى هاربًا، عائدًا إلى المنزل.. ونُقل الأب المضرج بدمائه إلى المستشفى، ولا يزال حتى الآن في العناية المركزة.

يحكي الناس أن الشرطة ذهبت في الصباح التالي إلى الطرف الغربي من المدينة حيث مزرعة ياسر علي، كانت سيارتا دفع رباعي بهما حوالى عشرة من رجال الشرطة تتجهان إلى المزرعة لاعتقاله، ويقال أن الشرطة عندما دخلت إلى المزرعة وجدت ياسر علي جالسًا متكئًا بظهره على نخلة طويلة في انتظارها. كان قد روى نخيله وأشجاره بالمياه منذ الفجر، وربما ودَّعها الوداع الأخير. عندما اقترب منه رجال الشرطة لم يقف بل رمى لهم بالسكين وقال: «خذوا. هذه هي السكين التي قتلت بها الجاسوس الكبير الذي دمر البلد». اقتاده رجال الشرطة من المزرعة مقيدًا، ويقال إنه قبل أن يركب السيارة ألقى نظرة وداع على مزرعته، وذكر أحد رجال الشرطة الذي تأثر بتلك النظرة أنها «نظرة عجيبة بها حزن وكبرياء أثارت الشجن في نفسي، وكأنه كان يودع أبناءه الوداع الأخير!». وذكر أيضًا

رجل الشرطة أن ياسر علي كان يقول لهم وهو مقيد: «لقد قتلته لأنه رمز للنظام، رمز للحكومة.. أنتم ماذا تخدمون؟ إنكم تعملون ضد الوطن لمصلحة رجال فاسدين نهبوا البلد وحولوه خرابًا».

عندما عدت ليلًا إلى منزلي كنت متعبًا، ومرهقًا، ومضنى من التفكير في الحادثة، لماذا أقدم ياسر علي على هذا الفعل الجنوني؟ لماذا أراد تدمير نفسه؟ ألا يوجد حل في هذا الوطن سوى القتل والسجن..؟

في آخر الليل وقبل أن أنام أخرجت من الخزانة ملفًا بعنوان «الثورة.. تاريخ المهزومين»، قلبت صفحاته، كان هذا بحثي الذي قمت به في الجامعة ولم أنشره قط، أعدته إلى الخزانة.. تذكرت نفسي بخزي وأنا في الصف أتحدث لتلاميذي عن مظاهر التقدم والازدهار التي نعيشها في وطننا بفضل الحكومة!

أخذت أبكي متمنيًا أن ينجو العم حتى لا يقاد ياسر علي إلى ساحة الإعدام، وأرجو أن يتم اعتبار الحادثة جريمة قتل عادية لا سياسية. قبل أن أنام استعدت تفاصيل لقائي بياسر علي في مقهى الجداول.. وجه ياسر علي المفعم بالكبرياء والتحدي والعناد، وخيط الغروب الأرجواني الناحل الذي كان يرفرف حولنا ويهتز كضوء الشمعة.. انطفأت الشمعة وحل الظلام والسكون..في نومي زارتني كوابيس كثيرة، رأيت ياسر علي مقودًا إلى ساحة الإعدام، وسمعت دوي رعود مزلزلة، وصهيل أحصنة

بيضاء تنفر من أعناقها الدماء.. وزارني طيف أستاذي ظافر سليمان، لكنه هذه المرة كان يبتسم بحزن لا بسخرية، وبكلمات ملؤها الشجن كان يقول:

- ألم أقل لك إن التاريخ لا يكتبه سوى الأقوياء!

ليلة واحدة!

أحدثت الليلة التي قضيتها في السجن تحولًا هائلًا في نفسي، كأن حجابًا سميكًا أو جدارًا عاليًا انهار فجأة وانزاح..وتفجرت في داخلي مشاعر جديدة، وعميقة، وغامضة بها كثير من الشجى والأسى والغضب.. وقّعت ورقة التعهد بأنني لن أعود إلى كتابة أشياء تخل بأمن الدولة، وخرجت من السجن. صافحت زوجتي وقبلت ابنتي الصغرى وابني الأكبر منها. ركبت السيارة باتجاه البيت. كانت زوجتي تقود السيارة وتتحدث إليّ، وأبنائي يعبرون عن شوقهم بالكلمات والحركات الشقية، لكنني كنت صامتًا، وسارحًا في مكان بعيد. كانت روحي لا تزال في زنزانة السجن. بالأمس حين أخذوني لتمضية عقوبة السجن لليلة واحدة كما أمر الادعاء العام فكرت كثيرًا في زوجتي وأولادي، وفي جدوى الكتابة التي لا تأتي منها سوى المشاكل، وعمّن سيرعى أبنائي لو تشردوا من الفقر والذل وأنا في السجن؟ وفكرت لأول مرة أن أطلب النقل بعد خروجي من السجن إلى قسم الرياضة أو المنوعات بالجريدة، ففي هذه الأقسام يمكن للمرء أن يكتب ما يشاء دون أن يتعرض للمساءلة أما السياسة فالأخطاء فيها لا تغتفر.

وأنا في الطريق إلى السجن بالأمس خطر في ذهني عدد من زملاء الدراسة في الجامعة، بعضهم أصبح في مراكز مرموقة، وأحدهم أصبح نائب مدير تحرير في إحدى الصحف الحكومية، بينما أنا محرر مغمور في جريدة خاصة، وبراتب قليل ومحدود، لولا عمل زوجتي ما استطعنا حتى استئجار شقة!، كنت أفكر في ما لو فصلت من عملي، صحيح أنني أعمل في صحيفة خاصة؛ لكن كل شيء في هذا البلد ملك للحكومة، يكفي اتصال هاتفي من جهات عليا بمالك الصحيفة كي أجد نفسي في اليوم التالي دون عمل.. كل تلك الهواجس التي كان يخفق بها قلبي خوفًا وفزعًا انهارت فجأة، أصبحت صغيرة جدًا، إلى حد أنني أشعر الآن بسخافتها. أشعر وكأنني لم أعد ذلك الشخص الذي دخل السجن بالأمس. هل تكفي ليلة واحدة في السجن لتغيير الإنسان إلى الأبد؟!

عندما وصلنا إلى البيت كنت لا أزال تائهًا، وغائبًا في مكان بعيد، سألتني زوجتي غير مرة، حاولت بأكثر من طريقة أن تجعلني أتكلم، لكنني كنت أرد بكلمات مقتضبة ثم أصمت. ونحن حول طاولة الطعام كنت أشاهد مشاكسات الأطفال، وأسمع أصواتهم، وألاحظ نظرات زوجتي القلقة، المستطلعة، لكنني كنت سارحًا في البعيد. أحاول أن أمضغ الطعام وبالكاد أشعر بطعمه..استأذنت قبل إنهاء الطعام. قلت لزوجتي إنني متعب قليلًا، أحتاج أن أجلس وحدي، دخلت إحدى الغرف، وأغلقت الباب على نفسي، وتمددت على الأرض.. أغمضت عيني محاولًا أن

أنام.. وشعرت أنني هناك، فأخذت أستعيد كل التفاصيل.. لحظة دخولي إلى زنزانة السجن.. غرفة صغيرة، خانقة، رطوبة كثيفة، ورائحة بول وعفونة. انتبهت إلى ثلاثة أجرام إنسانية تحتل زوايا غرفة السجن، اخترت الزاوية الخالية. جلست على الأرض. اتكأت بظهري على الجدار، ورفعت ركبتي باتجاه صدري، ووضعت كوعيَّ على ركبتيَّ، وبكفيَّ أمسكت برأسي، وأخذت أفكر عميقًا في ما حل بي، وكيف انتهت بي الحال في السجن مع المجرمين واللصوص والقتلة. لماذا ورطت نفسي في الكتابة عن الفساد، ونهب المال العام؟ صحيح أنني ألمحت بشكل موارب إلى قضية بيع الحكومة لأراض شاسعة لمستثمرين أجانب بأسعار زهيدة، وإلى الشائعات التي تتردد بأن هنالك عمولات تلقاها مسؤولون كبار، هذه القصة يرددها الجميع في كل مكان، لكنهم كانوا يترصدونني منذ زمن بعيد، يبحثون عما وراء السطور، يريدون خطأ ما، مآخذ لتأديبي. في تلك اللحظات مرت في ذهني وجوه عدد من أصدقائي، تخيلتهم ينعمون بالحرية والدفء مع زوجاتهم وأبنائهم بينما أنا في السجن! وعادت إلى ذهني فكرة أن أطلب نقلي إلى قسم المنوعات أو الرياضة حالما أخرج من السجن. رفعت رأسي بعد غياب طويل، انتبهت إلى سقف السجن الواطئ، كدت ألامسه برأسي عندما دخلت. تابعت عيناي شعاع الشمس الضعيف الذي يدخل من النافذة العلوية الوحيدة في السقف، بدا الشعاع ثقيلًا وكأنه يحمل ذرات من الغبار والعفونة. تطلعت إلى زملائي في السجن، كان أحدهم

يجلس جلستي ذاتها، لاحظت أنه يحدق إليَّ بنظرات مستطلعة، كان شعر رأسه الكثيف ولحيته الكثة يحجبان الكثير من ملامح وجهه، وفي الزاوية إلى يميني يجلس شاب في مطلع العشرين من عمره، توحي ملامحه وحركات جسده المتواصلة بشيء من الخفة، أما الآخر فكان منبطحًا على جانبه الأيمن، ممددًا رجليه. ظهره إلى الجدار ووجهه باتجاهي. كان يبدو هزيلًا وطاعنًا في السن، ولا يكف عن السعال.

قطع صاحب الشعر الكثيف واللحية الكثة الصمت:

- اسمي حاتم سعيد، وهذا الشاب مسعود علي والآخر الوالد سعيد منصور عرّفنا باسمك الكريم.

كان لوقع اسم «حاتم سعيد» أثر غريب أيقظ حواسي كلها، واتسعت عيناي لتتبينا ملامح صاحب الشعر الكثيف واللحية الكثة..

- اسمي يحيى أحمد.

- ما التهمة؟ هل قتلت أو سرقت أم أنك كنت تبيع المخدرات؟

- لا هذا ولا ذاك. كتبت مقالًا في الجريدة عن قضية تتعلق بسرقة المال العام.

حرك الرجل المسن رجليه ورفع رأسه وكأن كلمة «سرقة» أثارت فضوله، ودهمته نوبة من الكحة المتواصلة، أما الشاب فكان يقهقه بسخرية ويحرك رأسه. ضرب كفًا

بكف، وقال كأنه يكلم نفسه: «والله هذا البلد مسخرة، لا يوجد عدل أبدًا.» ثم رفع عينيه باتجاهي وأضاف: «أتصدق سجنوني ظلمًا! ضربت أحدهم بسكين، أصيب فقط ولم يمت؛ ومع ذلك يسجنونني! نعم لو كان مات من المعقول أن أسجن، لكن كيف يسجنونني وهو لم يمت؟! أين العدل، أخبرني؟ اكتب هذا في الجريدة. أنا لو كنت أعرف أني سأسجن كنت طعنت ابن الكلب بالسكين طعنة أقوى». التفت الشاب إلى الرجل المسن الذي كان رافعًا رأسه مصغيًا إلى الحديث وقال: «أنت لا تتكلم. أنت سارق، ولص، وحرامي، خمسين مرة يسجنونك وما تتوب، وآخر مرة سرقت امرأة مسكينة عمياء، أنت أبدًا ما في قلبك رحمة، وينبغي أن يحكموا عليك مؤبد».

كنت أستمع إلى الشاب وأردد بيني وبين نفسي اسم حاتم سعيد، هل يعقل أن يكون هو؟ أن ألتقيه هنا في هذه الزنزانة، أدرت وجهي عن الشاب نحو صاحب الشعر الكثيف واللحية الكثة، وقلت له:

ـ هل أنت حاتم سعيد الذي خرج في تظاهرة وحده، وطاف في وسط العاصمة رافعًا لافتة كتب عليها: «نطالب بالديمقراطية والحرية والعدالة والمساواة لكل أبناء الشعب»؟

اتسعت مقلتاه وهو ينظر إلي كأنه دهش من السؤال. وافترت شفتاه عما يشبه ابتسامة وقال:

ـ نعم هو نفسه.

ساد صمتٌ طويل بيننا..استرجعت في تلك اللحظات ما كان يرويه لي عيسى ابن خالي عنه. كان حاتم سعيد أكثر شخصية أعجبت بها في سنوات دراستي الجامعية، وكنت أفكر فيه كثيرًا. وكم تمنيت أن أراه أو أن ألتقيه ولو لمرة واحدة. ثم فجأة؛ ها هو الآن أمامي! كان عيسى ابن خالي الذي يكبرني بعشر سنوات يتحدث بحب وإعجاب شديد عن حاتم سعيد، وكثيرًا ما غالب الدموع في عينيه واختلج صوته وهو يتحدث عنه: «مسكين حاتم. لا يستحق ما حدث له! كان ذكيًا، وجريئًا، ومرهف الشعور.. ربى الكلاب، وطارد الثعالب في الجبال، وهام في البراري وحيدًا منذ صغره.. كان يقرأ كثيرًا، ولديه كاريزما خاصة جعلت حتى المعلمين يحترمونه، وبعض الطلبة أحب القراءة إعجابًا به. أسس في المرحلة الثانوية اتحادًا سريًا للطلبة، وكان يجتمع بنا كل يوم خميس لمناقشة شؤون المجتمع. وأحيانًا كنا نجمع مبالغ بسيطة لشراء أصباغ، ومعدات نجارة، وسمكرة، ونذهب إلى الأحياء الفقيرة بالمدينة، نصبغ نوافذ وأبواب منازلهم المهترئة، ونصلح الأدراج، ودورات المياه، ونساعدهم على حمل بعض الحجارة والألواح القديمة من ساحات الدار.. كان حاتم يقول إن ما كنا نقوم به هو الطريقة العملية لغرس الشعور بالمساواة وإزالة الطبقية من المجتمع.. أتذكر حين تأخرت المدرسة في توفير حافلات لنقل الطلبة مع بداية العام الدراسي، يومئذ حرَّض حاتم سعيد طلبة المدرسة على القيام بتظاهرة صباح اليوم التالي.. وبالفعل ولأول مرة في تاريخ المدينة،

خرجنا في تظاهرات إلى الشوارع نحمل لافتات كبيرة نطالب فيها المدرسة والحكومة بتوفير حافلات النقل، ونهدد بالإضراب عن الدوام المدرسي. حين وصلنا إلى السوق تجمع الكثيرون إلى جانبي الطريق ينظرون إلينا بابتسامات تعبر عن الرضا، وبعضهم كان يتلفت بقلق، وانضم إلينا عدد محدود من الرجال وبعض النساء الفقيرات. كان حاتم سعيد يتقدم التظاهرة بهتافات حماسية، وكنا نردد وراءه بقوة وصوت عالٍ. في اليوم التالي جاء وفد من الوزارة. وتحدثوا للطلبة في طابور الصباح بأن المطالب تمت تلبيتها، وأن الحافلات ستكون في الانتظار مع نهاية اليوم المدرسي».

حكى لي عيسى ابن خالي كثيرًا عن الظروف الأسرية والنفسية التي عاشها حاتم سعيد في طفولته «مقتل والده بتلك الطريقة البشعة زلزل كيانه. كان والداه قد انفصلا وهو في الثانية من عمره. تزوجت أمه بضابط في الجيش، وتزوج والده بعدها مرتين وطلقهما معًا، ويقال أنه ظل يحب زوجته الأولى أم حاتم، وبسببها ربما أدمن الخمرة. عاش حاتم معظم فترات طفولته مع جده لأمه، ومنه اكتسب حب القراءة والمعرفة. جده سافر كثيرًا، وعاش في مدن بعيدة، قبل أن يعود ويستقر في المدينة، وكانت لديه مكتبة كبيرة متنوعة من كتب التراث والأدب والتاريخ والسياسة والفلسفة، وقد أصر على تحفيظ حاتم الكثير من القصائد والمعلقات الشعرية، وكثيرًا ما كانت تدور بينهما نقاشات ومساجلات شعرية. أما والده فقد تدهورت أحواله بسبب

إدمانه الخمرة، إذ أصبح لا يرى إلا سكرانًا، رث الثياب، يتعاطى أرخص أنواع الخمور ويرتاد الخرائب، إلى أن انتهت به الحال مقتولًا على يد أحد رفاقه السكارى إثر شجار نشب بينهما. كان حاتم حينذاك في السابعة عشرة من عمره، وبعدها بأشهر دهمته أولى نوبات الصرع التي ظلت ملازمة له!»

ومن بين القصص التي رواها لي عيسى ابن خالي وظلت عالقة في ذهني قصة الجحش: «في إحدى رحلاتنا الطلابية في المرحلة الثانوية، وكان ذلك بعد مقتل والد حاتم بأشهر، أخذنا نطارد الحمير في الوديان، وحاصرنا جحشًا أبيض على تلة مرتفعة، كنا نريد الإمساك به، ولم يكن الجحش يجد مهربًا، وبدا أنه استسلم أخيرًا، غير أن أحد الأشقياء اندفع للجحش ورماه من أعلى التلة، وأخذ يضحك بينما الجحش يتدحرج، ويتلوى.. انسلخ الجلد، وتنافر الدم من أنحاء متفرقة من جسده، وحين استقر في السفح، أخذ ينهق، ويئن، ويتوجع، ويبكي، ولم يقوَ على الحراك..كان حاتم بعيدًا في المخيم.. وحين جاء ورأى الجحش مضرجًا بدمائه وهو يصدر ذلك الأنين المتوجع المكتوم انحنى عليه، وأخذ يمسح وجهه برفق، ويمسد عنقه، ويبكي، واشتد بكاؤه، طوق الجحش بيديه وكأنه يعانقه، وأخذ يبكي، وينشج.. وتشنج جسده، وأخذ ينتفض، ويرفس بحافريه الأرض. أصابته نوبة صرع حادة متأثرًا بألم الجحش..وعندما اقتربنا منه رأينا حاتم سعيد يكز بأسنانه بقوه، والزبد يغطي فمه، ويداه متخشبتان، وبقوة

استطعنا فك يديه عن عنق الحمار، وليومين متتاليين كان حاتم ينام ويصحو ويسأل عن الجحش، وكنا نطمئنه في كل مرة أنه بخير!».

بعد التظاهرات التي قام بها الطلبة احتجاجًا على عدم توفير حافلات النقل أصبح حاتم سعيد حديث المدينة ـ كما قال عيسى ابن خالي ـ وفي تلك الفترة ساءت العلاقة بينه وبين زوج أمه الضابط في الجيش كثيرًا، وربما تلقى الضابط بعض التأنيب على سلوك ابن زوجته فخشي على مستقبله الوظيفي. بعدها بعام سافر حاتم للعمل في العاصمة، وانقطعت أخباره لعدة سنوات، ويقال أنه تنقل في عدة وظائف بمؤسسات حكومية، ثم تواردت الأنباء عن اعتقاله بعد خروجه في تظاهرة وحده صباح يوم الخميس في وسط العاصمة. كان يمشي وحده في الشارع الرئيسي وسط المدينة حاملًا لافتة كبيرة كتب عليها «نطالب بالديمقراطية والحرية والعدالة والمساواة لكل أبناء الشعب»، كان البعض يمر بسيارته وينظر إليه متعجبًا، وعدد من المارة أوقف سيارته وأخذ يتابعه من بعيد، وحين دخل السوق المركزية ترك الناس ما كانوا فيه وأخذوا ينظرون إليه ويقرؤون اللافتة مبهوتين، مصدومين، مصعوقين، ولا يستطيعون استيعاب ما يحدث إلى أن تم اعتقاله من قبل الشرطة!. هذه التظاهرة التي قام بها شخص واحد أربكت أجهزة الأمن، ويقال إنهم رأوها بادرة خطيرة قد تشجع الكثيرين على تقليدها. وتسربت الأنباء أن حاتم سعيد أصيب بعد اعتقاله بنوبة صرع حادة تم نقله في إثرها إلى

المستشفى، وبعد أيام تم تحويله إلى المستشفى الخاص بالأمراض النفسية، وطوال هذه السنوات يتم نقله بين المستشفى والسجن من دون محاكمة.

كل هذه التفاصيل عن حاتم سعيد كانت تتداعى في ذهني بسرعة في تلك اللحظات.. وإذ بصوته يقطع الصمت الطويل:

ـ من أخبرك بقصة التظاهرة؟

ـ هذه الحكاية مازال الكثيرون يرددونها.

ـ يقولون إني مجنون؟!

ـ بعضهم نعم، وبعضهم الآخر يتحدث عنك بإعجاب شديد.

كنت أود أن أحدثه عن عيسى ابن خالي لكنني لسبب لا أفهمه فضلت ألا آتي على ذكره! أخبرته بإعجابي به من خلال القصص الكثيرة التي رواها الكثيرون عنه.. ساد الصمت بيننا للحظات، وتخللته كحات متتالية من الرجل المسن، أما الشاب فكان ينظر إلينا فاغرًا فمه قليلًا، قال حاتم بصوت متعب:

ـ صباح اليوم أخرجوني من مستشفى المرضى النفسيين، كنت أعاني أخيرًا نوبة صرع حادة. هذه سادس مرة أذهب إلى هناك. أحضروني هنا هذه الليلة ريثما يعيدونني غدًا مرة أخرى إلى السجن المركزي...صمت كأنه يتأمل وأضاف:

ـ أحب كثيرًا أن أكون في المستشفى. المرضى النفسيون هم أطفال العالم، ليس مثلهم أحد في البراءة، ولا يجاريهم أحد في المكر! إنهم يفهمون ما يرمي إليه الأطباء؛ لكنهم أحيانًا يتحايلون عليهم، ويضحكون سرًّا من غباوتهم. الأطباء هم المرضى الحقيقيون، صدقني. وإلا قل لي لماذا ينفق إنسان سنوات من عمره لدراسة الطب النفسي؟! هل لإنقاذ البشرية المعذَّبة؟! إنه حتمًا يبحث عن علاج لعلله النفسية الشخصية، ودراسته للطب النفسي ما هي إلا غطاء لإخفاء رغبته في البحث عن علاج لمعاناته!

ضحكت لفكرته الغريبة..كنت أود أن أتحدث؛ لكني شعرت أن لديه المزيد ليقوله.. قال بعد فترة صمت:

ـ أتعرف أنا لا أشعر برغبة كبيرة في الخروج من السجن، أحيانًا أفكر بأن الحياة في الخارج لا تطاق!

ـ ألم تعد تحلم بالحرية والعدالة والديمقراطية؟

ـ لا أدري. أحيانًا أظن بأنني لم أخرج في تلك التظاهرة المجنونة رافعًا تلك اللافتة وحدي إلا لأهرب من وضع نفسي حاد.. كنت على شفا الانهيار. لم أستطع التأقلم مع الوظيفة، كما أن أشياء كثيرة كانت تعذبني.. النشاط السياسي أحيانًا تنفيس عن الكُرَب والمشاكل الشخصية.. عندما لا تطيق نفسك ماذا تفعل إذا لم تشغل نفسك بشيء أكبر منك؛ كالعمل من أجل المجتمع،

الوطن، الأمة؟ إما أن تدمن الخمرة وتنتهي بك الحال مقتولًا مثل أبي، وإما أن تؤخذ إلى السجن أو مستشفى الأمراض النفسية!

صمت كأنه يضغط على جرح ما كي لا ينفجر.. ثم أضاف بصوت مجروح متألم:

ـ أتعرف أنا يومذاك لم أفكر في معاني الكلمات التي كتبتها في اللافتة! كانت محاولة للهروب أو الانتحار.. أحيانًا أظن أنها كانت طريقة للانتقام لمقتل أبي بتلك الطريقة الوحشية أو ربما كنت أريد توجيه صفعة إلى زوج أمي الضابط!

لاحظت عبر الضوء الخفيف الذي يصل إلينا من الممر خارج الزنزانة أن شفتيه كانتا تختلجان من الانفعال، خشيت أن يسقط في نوبة صرع أخرى، قلت محاولًا أن أغير الموضوع، أو ربما لأبحث عن تأييد لما أفكر فيه:

ـ أنتم كجيل كانت لديكم مساحة كبرى، السلطة السياسية لم تكن قد أحكمت قبضتها على كل شيء، على الأقل كانت هنالك أفكار وتيارات تعبر عن توجهات سياسية مختلفة وإن كانت سرية، عندما تفتح وعينا وجدنا الأرض يابسة، تم تجفيف كل منابع الأفكار المختلفة، ولم نعد نسمع سوى الأناشيد والأغاني الوطنية والحديث عن المنجزات العظيمة التي تحققت..تصور لم يعد هنالك الآن مجال للكتابة في الشؤون السياسية المحلية، ربما المجال الوحيد هو أن تكتب في الرياضة أو المنوعات.

نظر إليّ طويلًا وكأنه لا يراني، ثم تبسم وكأنه قرأ هواجسي الداخلية:

ـ هل تخشى أن يكون مصيرك مثل مصيري؟

وأضاف كأنه لا ينتظر إجابة عن هذا السؤال:

ـ أحيانًا أفكر ما الذي سأفعله لو خرجت من السجن بعد هذه السنوات، أين سأذهب؟ ماذا سأعمل؟ الحرية عبء!. على الأقل في السجن وفي مستشفى الأمراض النفسية تعرف سبب وجودك! أحيانًا أحلم أن أؤلف كتابًا بعد خروجي من السجن..هل تظن أنهم سيطلقون سراحي؟.. لا يهم.. سأؤلف كتابًا أسميه «تأملات سجين» لن أتحدث عن السياسة، السياسة تأثيرها محدود... لدي أفكار خطرة كونتها أثناء وجودي في السجن!

نظر إليَّ بتأمل عميق ثم قال بصوت عميق واثق:

ـ يبدو لي أنك لم تحرث تربتك جيدًا حتى الآن. إذا أردت أن تغير المجتمع بكتاباتك فعليك أن تفكر، أن تكون لك أفكارك الخاصة، كف عن ترديد ما تعلمته في البيت والمدرسة وما تقرأه في الكتب. عليك أن تعيد التفكير في كل شيء. السجن مكان مثالي للتفكير، لأنه يمنحك الوحدة لساعات وأيام طويلة، ولا بد أن تفكر وتعيد التفكير في كل شيء، وحينئذ ستبدأ تنظر إلى الحياة بشكل مختلف تمامًا، لكن السجن ليوم واحد لا يكفي. اسمع عليك أن تحرص في المرة القادمة على أن يسجنوك سنة أو سنتين..

ضحك وأخذ يقهقه بصوت عالٍ.. وضحكت رغمًا عني.. وضحك الشاب الذي يبدو أنه كان منصتًا إلى حوارنا وقال: «السجن يصنع الرجال.. أفضل الناس في السجن». وكح الرجل المسن وهز رأسه كأنه يؤكد الكلام، لكن الشاب أضاف وهو يلتفت إليه: «أنت ما محسوب بهذا الكلام.. أنت تظن نفسك من أفضل الناس؟ صدق ما تستحي على وجهك. أحسن لك تتوب. روح الحج. رجل في الدنيا ورجل في القبر وبعدك تسرق امرأة فقيرة، مسكينة وبعدها عمياء!. يا الظالم يا الحرامي.. أسرق الناس الأغنياء إذا كنت صدق محترم!»

في تلك الليلة، وبعد أن نام الجميع، حدثني حاتم سعيد عن الكثير من أفكاره الخطيرة! وعن حكايات المساجين والمرضى النفسيين، وباح لي بذكريات كثيرة وأحداث تركت آثارها في نفسه.. تحدث كثيرًا بمرارة عن مقتل والده، قال إنه اعتبر والده ميتًا منذ زمن بعيد حين تركه وأدمن الخمرة، وأصبح يترنح في الشوارع رث الثياب، ولكن موته بتلك الطريقة الفاجعة فجَّر في داخله طوفانًا من الألم والأحزان، لكنه قال إنه ينظر إلى والده الآن باعتباره ضحية ظروفه «لا أحد يريد تدمير ذاته باختياره، عندما تفهمت أبي وعذرته شعرت أني تصالحت مع أشياء كثيرة داخل نفسي». تحدث أيضًا عن زوج أمه، وكيف طرده من المنزل بعد التظاهرة التي حرض عليها طلبة المدرسة، ومن بين ما قاله وأثار اهتمامي «أتصدق، أصبحت الآن أتفهم موقفه مني، من حق كل إنسان أن

يدافع عن مستقبله الوظيفي، لماذا على الجميع أن يؤيدنا في كل قناعاتنا وأفكارنا؟». وفي آخر الليل وقبل أن ننام أسمعني بعض قصائده الغزلية القديمة..نمنا قبيل الفجر. وفي الصباح تحاشينا الحديث معًا. كنا صامتين، واجمين، كأننا نخشى الوداع القاسي، أن لا نلتقي أبدًا مرة أخرى! كان ذلك إحساسًا فاجعًا، وشديد القسوة، اللحظات كانت تمر حادة، مؤلمة.. كان الشاب يغمغم بكلمات غير مفهومة، والرجل المسن يعبث في كيس كأنه يبحث عن شيء ما، وأنا وحاتم صامتان كأحجار الوادي الصماء!

عندما ناداني الحرس للخروج سلمت على الشاب وعلى الرجل المسن اللذين وقفا لوداعي، كان حاتم جالسًا على الأرض ينظر إلى الجهة الأخرى، وعندما اقتربت قال لي «مع السلامة» دون أن يرفع رأسه لينظر إلى وجهي، مددت يدي إليه فوقف وصافحني، جذبته وعانقته، ولم أستطع أن أقاوم الدموع، شد على كتفيَّ بقوة بقبضتي يديه وقال: «لا تنسَ أن ترسل إلي نسخة من كتابك الأول». قلت له: «سأفعل، وأنا سأنتظر منك مسودة كتاب (تأملات سجين)». ابتسم بتواضع حزين، وشيء من الأمل الغائم.

خرجت من الزنزانة. لكنني وأنا أغادر وقبل أن أغيب في الممر التفت كي ألقي النظرة الأخيرة على حاتم سعيد، فرأيته ينظر إلي وبحيرة من الدموع تتلألأ في عينيه، واصلت المشي ومسحت بظاهر كفي دموعًا حرصت ألا يراها الحارس الذي قادني إلى الخارج.

في الساعة الرابعة عصرًا خرجت من المنزل، كنت أشعر بالاختناق، وكأن غرفة السجن انطبعت في روحي إلى الأبد. طفت في أرجاء المدينة بسيارتي، أنظر إلى كل ما حولي وكأنني لا أراه، كانت روحي في السجن، وكنت أسمع صوت حاتم يتردد صداه في داخلي، كأننا نواصل حديثنا بالأمس!

أوقفت سيارتي عند سفح الجبل المطل على وسط المدينة من جهة الغرب، وتسلقت سفح الجبل نحو القمة، جلست عند الحافة، وتركت رجلي تتدليان في الهواء، وأخذت أنظر إلى المدينة من أعلى.. أضواء المنازل، وأعمدة الإنارة، وأضواء المركبات التي اختلطت بحمرة الغروب القانية جعلت كل شيء يبدو شاحبًا، وهزيلًا، ويبعث على السقم..استعدت تفاصيل وجه حاتم الحالم الحزين.. وخطر في ذهني ابن خالي عيسى، تذكرته ذاهبًا بسيارته القديمة إلى عمله، غارقًا في الأعباء الوظيفية ـ كما يقول ـ وتوفير لقمة العيش لأبنائه، وكيف أنه لم يعد يهتم الآن سوى بمتابعة مباريات كرة القدم!

أخذت أنظر إلى الفضاء الرحب للمدينة من أعلى وأتساءل: ترى هل يتسع هذا الفضاء لشخصيات مثل حاتم سعيد أم أن السجن ومستشفى الأمراض النفسية هما المكان الأرحب لها؟! وفكرت في أشياء كثيرة وخطيرة.. وأخذت أتخيل وجه حاتم بنظراته الحالمة والحزينة يبتسم لي بتواضع ومحبة، وكأنه يشجعني على أن أذهب أبعد في التفكير والحلم!

الحوت يبتلع عصفورًا

تبدل السحب أشكالها في السماء، أرانب وتماسيح وفيل يعدو مطاردًا فراشة، ذلك ما أيقظ في نفسه مشاعر طفولية كان يظن أنه نسيها، تذكر نفسه جالسًا فوق سطح منزلهم عصرًا، متكئًا ومستظلًا ببرميل المياه المعدني الكبير، وقدماه تتدليان من السطح إلى الأسفل، إحساس لذيذ بالوحدة، بأنك تراقب العالم من أعلى بينما هم لا يرونك. لأن بيتكم من دورين يتيح لك أن ترى أسطح المنازل المجاورة وأحواشها الداخلية. امرأة عجوز محنية الظهر تمشي في حوش البيت باتجاه إحدى الغرف، إنها جارتك ياسمينة، امرأة مسنة وحيدة، كان لها ماضٍ ظلت حكاياته تتردد في الحارة، ورغم أنها لم تكن جميلةً إلا أن بيتها كان مزارًا لعشاق كثر في آخر الليل. عرفها الكثيرون من علّية القوم وأواسطهم، وكانت أحيانًا تستقبل في منزلها عاشقًا، وفي الليلة التالية تستقبل عاشقًا آخر، وأحيانًا كانت تزورها نساء ليلتقين في منزلها عشاقهن بعد أن أعيتهن الحيل، وياسمينة كاتمة أسرار النساء. من يزر قريتنا لن يشاهد وجه امرأة، عباءات وأخمرة سوداء، وبالكاد تستطيع أن تتابع حركة الأجساد المخفية، لكننا نحن أهل القرية نعرف أن الحكايات الغرامية لا تعد ولا تحصى، وأن تلك

المرأة المحجوبة التي تسير جنب الحائط هي نفسها التي تتلظى شبقًا جنونيًا في الفراش مع عشاق كثر، أحد تناقضات قريتنا التي نعرفها نحن أبناءها، ولا نقبل أي أحد من خارجها أن يقول شيئًا يخدش قشرة الحياء والشرف التي تحيط بها..انتبه إلى سحابة كبيرة في الطرف الغربي من السماء، تخيلها حوتًا كبيرًا فاتحًا شدقيه، بينما سحابة صغيرة أشبه بعصفور مذعور يحاول الهروب من فك الحوت، استغرب كيف يلتقي العصفور والحوت في السماء! ، الحياة أحلام.. مسكينة ياسمينة من يتذكرها الآن، كانت تمشي محدودبة الظهر، في يدها مسبحة صفراء كبيرة، تفرش حصيرتها في حوش الدار، ثم تعود كي تحضر وسادتها، وتستلقي على ظهرها لتنظر في السماء طويلًا، ربما تتذكر عشاقها الغابرين.. أتذكر الشيخ سلطان، أحد أعيان قريتنا ووجهائها، كان في منزلها صباحًا، وكنا أطفالًا غير أبرياء، كنت في السابعة من عمري مع شلة أولاد الحارة الأشقياء، أخذنا نصيخ السمع خلف النافذة، وسمع بعضنا، خصوصًا الأكبر سنًا منا، ما دار من همسات في منزل ياسمينة بينها وبين الشيخ سلطان، وعندما خرج من منزلها إذ بنا نتجمع حوله ونهتف: «عمي سلطان الساعة ثمان، عمي سلطان الساعة ثمان» ورغم أني كنت أردد ما يقولونه دون أن أفهم شيئًا، إلا أنني لم أنتبه إلا وعصا عمي سلطان الناعمة اللاسعة تنزل على ظهري وأنا أجري مع الأطفال الذين نجوا من عصاه، وأخذت أبكي بينما الأطفال يعودون مرددين هتافهم: «عمي سلطان الساعة

ثمان..» وبصوت عال أثار ضحك الكبار الذين عرفوا الحكاية لاحقًا بعد. مسكينة ياسمينة، تتمدد الآن في حوش الدار، هل تتذكر عمي سلطان وموعدها معه الساعة الثامنة، ومن تتذكر الآن من بين عشاقها الكثر، أم أنهم مروا عليها مرور العابر دون أن يبقى منهم أي أثر. لم تكن ياسمينة أكثر من محطة عابرة، محطة سهلة ومتاحة، لأنها جاءت إلى الحياة دون أن يُعرف لها أب أو أم، لهذا كان سور منزلها واطئًا يسهل اقتحامه.. الشمس تميل إلى المغيب، ونور الشمس يتضاءل، وأنت تجلس في شرفة منزلك في المدينة، تتذكر قريتك البعيدة، وسطح منزلك، وياسمينة. أنت الآن عجوز هرم، ومثلما كانت ياسمينة تقضي أوقات العصر مستلقية في حوش منزلها حتى أذان المغرب لتفرش سجادتها وتصلي، أنت الآن جالس في شرفتك وحيدًا، لكن لا أحد يراقبك من أعلى، ولا أحد يتذكر ماضيك وسنوات شبابك، لا أحد يمكن أن يكتب عنك حكاية أو قصة قصيرة. وحدك تسرح في السحب التي بدأت الآن تختفي، الحوت غطس في لجة السماء بعد أن ابتلع العصفور، والتماسيح عادت إلى البحيرة، والأرانب دخلت أوكار الظلمة، والفراشات طاردت نور الغروب الناحل، بينما الفيل يجري وراءها منهكًا يوشك على السقوط.. وأنت مازلت تحلم وتتذكر طفولتك البعيدة فوق سطح منزلك.

إلى أين أذهب؟

العالم كبير، واسع، غني، متنوع، ولا تحده حدود، وهنالك في مكان بعيد، في هذه اللحظة تحديدًا، رجل عجوز يمشي في شارع من شوارع مدينة ما.. من مشيته المثقلة يتضح مدى حزنه! لقد تلقى اليوم رسالة إحالته على التقاعد هذا الصباح، وهو الآن يمشي دون أن يعرف إلى أين يذهب. عبرت في لحظة سنوات حياته الطويلة في العمل، كل ذلك مر، عبر، اختفى، ولم يعد له وجود، وهو الآن يشعر أنه عجوز. أنه غير صالح للعمل، ولم يعد به نفع..إلى أين يتجه؟!، هذا السؤال يعاود التكرار في ذهنه دون أن يجد له إجابة مناسبة، كل ما هنالك أنه يترك خطواته الحزينة المثقلة تقوده..

توقف الآن لدى دكان صغير لبيع الآيس كريم والعصائر. السيارات تعبر بسرعة. الكل لديه عمل، مشغول بشيء ما. لا أحد يهتم به. حتى لو غادر الحياة، ستظل السيارات تعبر بسرعتها المعتادة، وبائع العصائر سيظل في مكانه يبيع الآيس الكريم والعصائر للعابرين! تُرى ما معنى الحياة؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه الآن على نفسه! إنه يفكر بعمق وجدية، ومن ينظر إليه الآن سيرى رجلًا في الستين من عمره جالسًا أمام دكان لبيع الآيس كريم

والعصائر، نظراته حائرة، وملامحه تفيض حزنًا وخيبة. إنسان تائه لا يعرف إلى أين يذهب أو ما الذي سيفعله بما تبقى له من سنوات في هذه الدنيا! إنه يفكر الآن بعمق وجدية في معنى الحياة، هذا أخطر سؤال في الوجود، هكذا قال لنفسه. لماذا لم أسأل نفسي هذا السؤال من قبل؟! كنت أمارس سلطتي وصلاحياتي كمدير دائرة في الوزارة. هالة من التضليل والنفاق كانت تحيط بي، الموظفون كانوا يتملقون ويجاملون، وأنت كنت تحب أن ترى انعكاس سلطتك في عيون الآخرين. من ترى يحترمك ويقدرك الآن؟ كنت إذا أصابتك وعكة صحية وغبت يومًا واحدًا تسأل عنك عشرات الاتصالات، عواطف ومشاعر الموظفين وأصحاب المصالح تحيطك برعاية وحب..أين هم الآن؟ ولا أحد منهم يتذكرك!، أضعت حياتي في الأوهام والآن أسأل نفسي ما معنى الحياة؟!

طعم الآيس كريم منحه إحساسًا طفوليًا أنعش صدره المحتقن بالمرارة.. إنه ينتبه الآن لأطفال يلعبون بكرة القدم في الجهة الأخرى من الشارع، يركضون بحرية وانطلاق، وجد نفسه مندمجًا في متابعة مجريات المباراة. استعاد ذكرياته حين كان لاعبًا لكرة القدم، كان نجمًا رياضيًا تتوجه إليه الأنظار. كتبوا عنه في الجرائد مرات عديدة، وأينما اتجه كان الناس في مدينته يسلمون عليه، ويحاولون أن يتقربوا منه، بل إن صعوده الوظيفي السريع كان له علاقة بحب الناس له كنجم رياضي، ولكن لا أحد يتذكره الآن!. ذلك الحب وتلك الرعاية كانا أشبه بحلم عابر. تبدد كل

شيء، كل شيء، وهو الآن عجوز مُحال على التقاعد، سيصحو في الصباح دون أن يعرف إلى أين يذهب. سيجلس في أحد المقاهي، وربما يلتقي عجّزًا آخرين محالين مثله على التقاعد، سيتبادل وإياهم أحاديث يومية عن شكوى الزمان والحال، والهموم اليومية التي لا تنتهي.

رمى ورق الآيس كريم في صندوق القمامة، ونظر إلى السماء الواسعة، ثم واصل المشي.. خطوات مثقلة، متعبة، هرمة، وحائرة.. وهو الآن يغيب ويختفي بين الجموع في المدينة.. العالم واسع، غني، متنوع، ولا تحده حدود. وهو الآن غائب في هذا العالم، ولم يعد له وجود!

الحياة توجد في الداخل

وحدها الذكريات أفراحها وسلواها، تعيد كل يوم استرجاعها، تروي اشتياقها إلى وجه أخيها الحبيب الذي غادر الدنيا منذ خمسة عشر عامًا، وأخيها الأصغر الذي رحل قبل سبع سنوات، وبيتهم الطيني الكبير الذي كان يعج بالحياة، كل ذلك امحى ولم يعد له وجود سوى في عقلها وقلبها.

من يراها لن يصدق أنها تعيش كل يوم حياة حافلة بالأحداث الغنية!. من يراها سيعطف عليها، سيرق قلبه لها. سبع سنوات وهي مستلقية في سريرها. لقد أصبحت عجوزًا، هرمة، متعبة، ولا تقوى إلا على تحريك رأسها ويديها..سبع سنوات وهي لم تغادر سريرها، ولا تعرف ما يدور في العالم الخارجي، ولكن حياتها مفعمة بالحرارة، والأشواق، وأحيانًا يرى من حولها دموعًا تسيل على وجنتيها دون أن يعرفوا سببها.

كثيرًا ما تردد في خلواتها اسمي أخويها الراحلَيْن، سالم وعلي، تتحدث إليهما لفترات، وأحيانًا تحرك رأسها بألم وكأنها لا تقوى على التصديق أن كل ذلك العالم الحميم انقضى إلى غير رجعة، وأنها أصبحت الآن وحيدة..

ما نفع حياتها الآن؟، من يهتم بها؟، من يعرفها؟، لو كان لها أولاد هل كانوا سيحبونها؟

لم يكتب لها نصيب أن تنجب من زواجها، لو كان لديها أولاد لكانت الآن في بيتهم بدلًا من العيش في بيت ابن أخيها الأكبر.. كثيرًا ما تقول في نفسها لماذا أعذب نفسي بهذه الأماني التي فات أوان تحققها، ولكن قلب الإنسان لا يعترف بالواقع، يظل طفلًا حتى لو شارف، مثلها، التسعين، وكان طريح الفراش، وينتظر الموت.. هل هي تنتظر الموت؟

حينما مر عليها ابن أخيها الشاب العائد من دراسته في الخارج بعد عام كامل وجدها كما تركها تمامًا، عرفته منذ أن سمعت صوته للوهلة الأولى رغم الغياب الطويل، قبَّلها على رأسها وفي وجنتيها.. كان صوتها، وهي تسأله عن حاله وصحته، مليئًا بالشوق والحب والطفولة، وبأشياء كثيرة غامضة وجميلة!. الحديث بينهما تواصل للحظات ثم سرعان ما دخلت في غيبوبة صمتها المعتادة، كان ينظر إليها ويتساءل كيف استطاعت أن تتحمل كل هذه السنوات وهي في هذه الحالة!، لقد كان العام الذي قضاه في دراسته بالخارج مليئًا بالأحداث الكثيرة والوجوه والمواقف وكأنه عاش سنوات طويلة هناك، بينما العام نفسه عاشته عمته في صمت وربما غيبوبة بيضاء خالية من الأحداث، هكذا كان يتساءل وهو ينظر إليها بإشفاق وألم وتأمل.. كان يتساءل إن كانت عمته قد أصبحت يائسة، ومتعبة من الحياة أم لا، وهل تراها تنتظر الموت أخيرًا.. الموت أحيانًا راحة.

لاحظ أنها كانت تتمتم بشفتيها كلمات غامضة، غير مفهومة، اقترب منها، واستطاع أن يميز اسم سالم والده، واسم عمه علي. كانت شفتا عمته تفتران عن ابتسامة، ثم عن كركرات طفولية، وبدأت همهماتها تتحول إلى أصوات، وضحكات، ثم إلى مناجاة تفيض بالشوق الجارف:

«يالله يا سالم، يا خويه، مشتاقة ريحتك، يا أبويه، ويا أخويه، وين رحت وخليتني هنا لوحدي.. خلا بنروح المزرعة، بتأخذني معك، أريد أعيش هناك بين النخيل، وقريب من بير الماي.. وعلي بيجي معنا، بنكون كلنا في بيتنا في المزرعة.. من زمان ما كنا مع بعض..»

كان وجهها يضيء بابتسامة فرح تفيض بالحياة.. الذكريات أنعشت قلبها، رئتاها انتعشتا بهواء المزرعة ورائحة الأرض الخصبة المبللة بالمياه.. وراحت تواصل حديثها وهي تطير في السماء.

عندما غادر غرفتها بهدوء كما دخل إليها نظر طويلًا إلى السماء، رأى النجوم المتناثرة بفتنة في ظلمة الليل، كانت وضاءة، بهيجة، ومضيئة بطفولة وكأنها تولد في تلك اللحظة!.. تخيل عمته تطير بسريرها بين النجوم، رآها تصغر في السن، تفتح عينيها، وتقف على رجليها، ثم تغادر سريرها وتركض بمرح بين النجوم.. كان وجه عمته يضيء بين النجوم وكأنه كوكب دري، وجهها يفيض فرحًا وحياة.. وربما أكثر حياة من كل البشر الذين عرفهم في حياته!

أنا لو كُنتُ..

سئمت الكتب، لم يعد فيها شيء يغريني، لقد عرفتها على حقيقتها، واكتشفت خداع هؤلاء الكتاب البائسين، إنهم حمقى وكسالى، ويتوهمون أنهم عرفوا أسرار الكون، وأنهم وحدهم من يملك الحقيقة، قررت أن أهجر الكتب.. خرجت من منزلي إلى الشارع، وشعور جديد يتملكني، إنه أقرب إلى الدهشة، نعم نعم الشعور بالدهشة، كانت عيناي تلتقطان الأشياء وكأنهما تريانها للمرة الأولى، وقفت لأول مرة أتأمل المنزل المقابل لمنزلي.. فوجئت بالشقوق والتصدعات التي تملأ جدرانه، وتخيلت أنه في أي لحظة ما سيقع على ساكنيه.. النوافذ الخشبية مهترئة، وواحدة على وشك الانخلاع والسقوط على الأرض، امتلأت بشعور حزين وأنا أتخيل مقدار الفقر والبؤس الذي يعيشه أهل هذا البيت.. ربما تعيش فيه أم وابنتها، الأم لا شك عمياء والابنة متخلفة عقليًا، والأب توفي منذ سنوات أو ربما هجرهم بعد أن أدمن الكحول أو ربما في السجن!.. عبرت تقاطع الشارع بعد جهد ومعاناة كبيرة، السيارات تمر بسرعة خاطفة، وكأن أصحابها يحملون معهم حالات خطرة، ويريدون إيصالها إلى المستشفى بأسرع وقت.. ماذا يعني الوقت لهؤلاء البلهاء.. شعور جبان بأن سيارة متهورة قد

ترمي بي أشلاء إلى الجهة الأخرى سيطر علي وأنا أعبر الشارع.. سرت وفي أضلعي قشعريرة تكهرب لها جسدي وانتفض قلبي.. كنت عازمًا على الذهاب إلى السوق، أريد أن أرى الناس، أكبر عدد ممكن، أريد أن أنظر في عيونهم تمامًا لأكتشف مقدار ما يخبئونه داخل صدورهم من أسرار، أريد أن أتعرف إليهم من جديد، دهشت لمرأى بدوي بثياب رثة ولحية كثة راكبا حمارًا أبيض قويًا ومتجهًا إلى السوق، دهشت لهذه المدينة وقلت لنفسي: «حداثة، مدنية، تخلف، عهر، فسوق، فضيلة، عدالة، ظلم..» الحياة لعينة.. تذكرت حمدان الذي أصبح الآن مسؤولا كبيرًا، شعرت أنه قد يعبر بسيارته «المرسيدس» من الشارع، وسيراني.. سيطلب من السائق أن يهدئ السرعة، وسينظر إلي باحتقار شديد، وسيسحب أنفاسًا من الهواء ويضحك.. أوه لقد أضعت شبابي، أنا لو كنت حازمًا، لو كنت عاقلًا وذكيًا، لو كنت أكثر شجاعة ونشاطًا، لكنت الآن أحد المسؤولين الكبار في هذا البلد، أنا من أوائل الدفعات الجامعية، كانت الأماكن شاغرة، وكان المستقبل يفتح لي أبوابه، افتح أبوابك يا سمسم.. لكن الأربعين حراميًا قبضوا على علي بابا، وسجنوه في المغارة عشر سنوات، نعم عشر سنوات.. كم هي طويلة وشاقة، إنها عمر بأكمله.. وفي السجن تعلقت أكثر بالكتب، وغبت عن العالم نهائيًا.. لكن العذابات لا تنتهي، والكتب لا تفعل شيئًا سوى أنها تزيد شقاء الإنسان وتنسيه العالم.. آه «مشى كل الزمن وأنا في مكاني» هكذا قالها أبوبكر سالم في إحدى المرات..

ازدادت نبضات قلبي، وشعرت بجفاف في الحلق، وخطوط من العرق أخذت تسيل في أماكن مختلفة من جسدي، كانت سيارة «المرسيدس» تقترب مني.. كنت أظنه حمدان، لكن ظني خاب.. تعلقت عيناي بزوجي حمام، كان الذكر يراود الأنثى لكنها تتمنع.. يلاحقها، يقترب بمنقاره من جسدها الدافئ، تستسلم قليلًا، لكنها تنتفض فجأة وتبتعد، يفر الذكر، يقترب منها.. ويستمر في محاولاته دون يأس، قلت لهما بصوت دافئ مليء بالحب: أنت يا حمام أجمل العشاق على وجه الأرض، أنت أفضل من يتفنن في أساليب الغزل والمراودات.. كانت بوابة السوق تقف أمامي وكأنها قطعة أثرية لم تصبها حمى المدنية الهائجة، كانت البوابة تنتصب كذاكرة عنيدة في وجه الزمان وفلوله.. وصلت إلى مسامعي جلبة السوق.. أصوات الباعة، ورنين الحديد في أيدي الحدادين، طرقات النجارين على الخشب، وأبواق السيارات، وصراخ.. شبكة هائلة من الفوضى الصوتية، وآلاف الأشكال والوجوه والأشياء، تعابير، انفعالات، ضحكات متشنجة، ونظرات مليئة بالانكسار، وعيون تتلفت في جشع وترقب.. كنت وأنا أدخل من البوابة أشعر وكأنني أدخل إلى الحياة الحقيقية، وأزداد اقتناعًا بأن كل الفشل الذي تعرضت له في حياتي بسبب الكتب.. أخذت أغرق في السوق، لم أعد أسمع صوتي، لم أعد أتبينه، اختفى تمامًا، وملامح وجهي لم أعد أتذكرها، وذاكرتي نسيت ذاكرتي، أصبحت ضائعًا، كل ما أعرفه هو أنني موجود في مكان ما من السوق، وأنني أعمل في مهنة

ما.. لكنني لا أعرف ما هي المهنة، وما هو المكان ولا الزمان، كل ما أعرفه أنني ضائع متلاش هباء.. وأنني لن أعود مرة أخرى إلى منزلي.

زوينة

في الطريق من بيته إلى السوق تذكَّر أنه نسي إغلاق خزانته الحديدية الصغيرة التي تحتوي على أغلى ذكريات حياته، خرائط بحرية، وكتاب في علوم البحار، و«روزنامة» كان يدون فيها يومياته البحرية، وسيرة عنترة بن شداد، وديوان المتنبي، وصرة خضراء بها خصلة شعر، وقطعة عود، وقارورة عطر تعود إلى أيام سالفة..

تذكَّر أيضًا أن باب غرفته مفتوح..وقف متكئًا بباكورته في وسط الطريق، رفع مصره بيده اليسرى ونظر إلى السماء وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، تسارع خفقان قلبه، وعاد أدراجه ساحبًا قدميه ببطء، وبمعونة الباكورة، إلى البيت، وصورة الخزانة المفتوحة ماثلة أمامه. شعر بإجهاد وضيق في التنفس، فوقف متكئًا على جدران أحد المنازل..

كان يعتبر الخزانة ذاكرة لتاريخه وحياته كلها، في أواخر الليل يصحو عادة ليشعل «صراي» صغيرًا من العهد القديم كان يحتفظ به في غرفته رغم وصول الكهرباء، ويفتح باب الخزانة، ومعها يدور شريط حياته حاملًا صورًا ومشاهد لا حصر لها. كانت رائحة الخرائط البحرية والكتب مختلطة بالعود والصندل والعنبر والزعفران تنعش في داخله

عالمًا فاتنًا وحميمًا.. يتلمس الأشياء بيديه المرتجفتين، ويمسحها بحنان بالغ.. يفتح صرة خضراء مقتطعة من ثوب نسائي، ويخرج منها خصلة شعر مبخرة ومعطرة، يشمها، ويقبلها، فتهب في دواخله رائحة زنجبار، والأماكن الدافئة، وذكرياته الحميمة مع زوينة!

تلفحه أشعة الشمس، يلمح ظلًا واسعًا لجدار أحد المنازل، يتقدم إليه ببطء وتعب مرتكزًا بأقصى ثقل ممكن على الباكورة.. يصل وأنفاسه تعلو وتهبط بسرعة كبيرة، يلقي بعصاه على الأرض، ويحاول الجلوس في الظل البارد مستعينًا بيديه المتشبثتين بالجدار.. يقعد على الأرض، ويستند بظهره إلى الجدار، ويمدد رجليه.. شعر بنسيم بارد يهب عليه..

استرجع ذكرياته يوم وداعها..كان عليهم في صباح اليوم التالي أن يواصلوا رحلتهم بالسفينة من زنجبار إلى بومبي لبيع البضائع ومنها العودة مباشرة إلى مدينة صور.. تسلل إلى منزلها قبيل الفجرِ، فتحت له الباب الصغير من الجهة الخلفية للمنزل، وفي درج دهليز البيت احتضنها بعمق، وقبل شفتيها.. كانت تنظر إليه وتمسح دموعها طوال الوقت.. وعدها بالعودة وخطبتها من أبيها.. أخرجت له صرة خضراء اقتطعتها من ثوبها، كانت تفتحها وعيناها تتلألآن بالدموع والحب والحزن والفرح، كان بها خصلة من شعرها، وقارورة عطر صغيرة، وقطعة من العود حتى يعود، كما قالت له.. لكنه لم يعد قط بعدها إلى زنجبار، كانت تلك سفرته الأخيرة. أصر عليه والده في صور أن يتزوج ابنة

عمه، وانقطعت أخبار زوينة ولكنها لم تفارق قلبه وخياله، وظل شوقه وحنينه يشدانه إليها دائمًا.

شعر بضيق التنفس يزداد، ندم لأنه لم يحضر معه البخاخ الذي يستخدمه لتسهيل التنفس.. وعادت صورة الخزانة التي نسيها مفتوحة، شعر بضرورة أن يقوم، ويواصل سيره إلى خزانته.. كان ينشر الخرائط البحرية في منتصف الليل على ضوء «الصراي» العتيق، ثم يضيء مصباحًا يدويًا صغيرًا ويمرر ضوءه على الموانئ البحرية، متتبعًا خطوط الملاحة البحرية، فتعود وجوه وأحداث، ومواقف تبعث السرور في قلبه أحيانًا، وتخض الروح بمواجع الحزن والفقد في أحيان كثيرة.. يقلب صفحات من سيرة عنترة بن شداد، وديوان المتنبي، ولأنه لم يعد قادرًا على القراءة بوضوح يستذكر بصوت أقرب إلى الهمس بعض الأبيات للمتنبي وعنترة بن شداد، وحين يمسك بالصرة الخضراء التي أهدتها إليه زوينة يمسح الدموع المترقرقة من مآقيه..

مر وقتٌ طويل قبل أن يفاجأ به أحد المارة متمددًا على الأرض، حاول أن يهزه، أن يحركه وهو يناديه دون جدوى. أمسك به من إبطيه، ورفع نصفه الأعلى من على الأرض وأسنده إلى الجدار. سقطت عمامته البيضاء على الأرض، وبان خده الأيسر معفرًا بالتراب.. طرق البيوت المجاورة، خرج له الرجال، والنساء تطلعن من النوافذ.. وتجمع عدد كبير من المارة حملوه إلى منزله جثة هامدة، وحين بدأت مراسم الغسل والتشييع لاحظ أحد جيرانه وهو

يغمض أجفانه إلى الأبد أن هنالك بقايا دموع بللت أصابعه!

حين عاد الرجال من تشييع الجنازة، وتم تجهيز غرفته الخالية كمكان للنساء المعزيات، قام ابنه الأكبر بتفتيش الخزانة بحثًا عن أموال خلفها والده، فلم يجد سوى مائتي ريال عماني. أحضر كيسًا أسود كبيرًا وضع فيه الخرائط البحرية المهترئة، ودفتر «الروزنامة»، وكتاب علوم البحار، وسيرة عنترة بن شداد، وديوان المتنبي.. وحين فتح الصرة الخضراء ولاحظ خصلة الشعر النسائية، وقطعة العود، وقارورة العطر الصغيرة، لم تثر اهتمامه، بل وضعها كلها في الكيس الأسود الكبير، وبمعاونة عدد من أبنائه قام بنقل الخزانة الحديدية الصغيرة إلى بخار قديم في أطراف المنزل، أما الكيس الأسود الكبير فقد تبرعت إحدى الجارات بحمله لرميه في صندوق القمامة القريب من المنزل!

في انتظار المطر

حطت حمامة بيضاء على مزراب قديم لم تزره الأمطار منذ سنين. كان المزراب يابسًا، نخرًا، وظامئًا إلى المطر. نظرت الحمامة إلى السماء، رأت غيومًا بيضاء صغيرة آتية من جهة الجنوب، وفي الشمال، حيث البحر، رأت غيومًا رمادية متراصة تزحف باتجاه الجنوب. رياح باردة هبت من الشمال. تحركت الحمامة بساقيها من الجانب الشمالي للمزراب إلى الطرف الجنوبي، كان صوت خشب المزراب يأتي عميقًا متحشرجًا، فاض قلبها أسىً، شعرت بظمأ المزراب للمطر.

طارت الحمامة أعلى إلى سطح المنزل العتيق المهجور، حطت على حافة السطح، رأت طينًا يابسًا متشققًا كأنه يفغر أفواهًا كثيرة بانتظار المطر. نظرت إلى الجنوب، الغيوم البيضاء الصغيرة زحفت قليلًا باتجاه الجبال، بينما غيوم الشمال تغطي معظم السماء وتمد أذرعها باتجاه غيوم الجنوب الصغيرة. فاح طين سقف المنزل برائحة أرض طينية مبلولة، وكأنها تأتي من ذاكرة الطين البعيدة!

عادت الحمامة إلى المزراب. أصبحت السماء ملبدة بالغيوم، والهواء بدا أكثر برودة. قطرات ناعمة من المطر

لامست جسد الحمامة، ولامس بعضها المزراب، تحشرج الخشب، وأطلق الطين في الأعلى آهات عميقة اختزلت عذاب سنوات من القحط، فاح طين السقف والمزراب القديم بعبق جميل أشجى الحمامة، وتمنت أن تهطل أمطار غزيرة، لكن الريح القادمة فجأة من الغرب أخذت تدفع الغيوم إلى جهة الشرق حيث الصحراء.

بدأت الغيوم ترق، ومن خلالها تسللت أشعة الشمس، وبدأ حلم الأمطار يتلاشى. شعرت الحمامة بأشياء عميقة تتمزق في أحشاء المزراب، والطين أخذ يفوح برائحة الخيبة والعذاب، والشمس أخذت تعاون الريح على تبديد الغيوم. شعرت الحمامة برغبة في الطيران، قفزت إلى الجانب الشمالي للمزراب، تابعت عيناها السحب المهزومة وهي تفر باتجاه الشرق. ضربت بجناحيها الهواء، وارتفعت عاليًا، ودوت في أذنيها وهي تحلق أصوات توجع وحشرجات، أعادت النظر إلى المزراب، رأته ينكسر ويتهاوى على الأرض، ولكنها أشاحت بوجهها وعينيها الدامعتين، وأخذت تضرب الهواء بجناحيها وكأنها تلاحق الغيوم!

البالونة الحمراء

كانت البالونة الحمراء تطير في السماء، تتقاذفها الريح بينما هي تضحك.. تكركر.. كمن لا يفكر في شيء سوى اللحظة ذاتها، كمن ينغمر في إحساس لذيذ بالمتعة، مثل طائر يفرد جناحيه للريح دون أن يتذكر من أمسه شيئًا..

كانت البالونة الحمراء تتدحرج في سلالم الهواء، تقفز فوق أسطح المنازل، وتربِّتُ رؤوس الأشجار، وتبتسم لمياه النهر اللامعة في الضحى..

كانت كلما مرت على حي ارتفعت لها أعين الأطفال الصغار، أما الكبار فبالكاد ينتبهون لها، لأن أعينهم بعيدة، وأفكارهم مشتتة.. الصغار وحدهم من يردون على ابتسامتها بكركرات حلوة.. وكانت البالونة الحمراء ترقص فرحًا كلما سمعت ضحكات الأطفال ورأت عيونهم المشعة فرحًا..

وعندما عبرت البالونة الحمراء أحياء المدينة، ووصلت إلى هناك، حيث الروابي الفسيحة، ارتفعت عيون الأبقار تنظر إليها، والثيران استُفِزتْ لمرأى البالونة الحمراء، وحين هبطت لتُرَبِّتَ عشبًا مهملًا، اندفع ثور لينطحها، ولكن البالونة تفادت النطحة بخفة وغنج،

وارتفعت ضاحكة للثور الغاضب، الذي لم يفهم الضحكة، وظل ينظر إليها ببلاهة وهي تبتعد نحو السماء..

سربٌ من الطيور مر على البالونة الحمراء، ولكنه سرعان ما عاد أدراجه، وظل يحوم حول البالونة، والبعض راح يضربها بأجنحته، إلى أن ارتفعت بعيدًا، وبين سحابتين عبرت البالونة، واحتجبت هنالك عن الطيور والبشر وكائنات الأرض..

ربما ارتاحت على ظهر سحابة، نائمة على وهاد العهن المنفوش، حالمة بطفولتها، بالمنزل الذي كانت فيه، بالطفل الذي نفخ فيها من أنفاسه الزكية، وأطلقها في الهواء منتشيًا بالحرية.. كانت البالونة الحمراء نائمة في سرير السحاب، تحلم بطفولتها، دون أن يوقظها أحد.

ما لاذ بالحلم

كنت أعلم أنني لو كتبت مثل هذا البحث لن تقبله الجامعة، ولن يتاح لي نشره أبداً؛ وربما سيؤثر ذلك على فرص حصولي على وظيفة بعد التخرج، لكنني كنت أشعر بـ«المسؤولية التاريخية»، كنت أتذكر كلمات أستاذي ظافر سليمان الذي حببني في مادة التاريخ بالمرحلة الثانوية، وربما هو من غرس في نفسي بذور «الوعي المضاد للتاريخ الرسمي»، كان يقول لنا: «التاريخ الذي تقرأونه في الكتب، وتسمعونه في وسائل الإعلام هو تاريخ المنتصرين، أما المهزومون فلم يكتب تاريخهم أحد، لو أتيح لهم أن يكتبوا حكايتهم لتغيرت وجهة نظرنا حول الكثير من الحقائق التي نعتقد بها.. إذا أردتم التاريخ الحقيقي فابحثوا عما يكنه المهزومون والمسحوقون في صدورهم..»



ISBN 978-614-404-383-7

